## الفصل الأول

# مشكلة الشَّرِّ

مشكلتان منفصلتان لكن لهما صلة وثيقة بعضهما ببعض كثيرًا ما يسمعهما المسيحيُّون عندما يعترض الناس على المسيحية؛ هما مُشكلة الشَّرِّ ومُشكلة المُعاناة الإنسانية. عادةً ما تُصاغ المُشكلة الأولى بخصوص الشرِّ كما يلي: كيف يُمكن لكائنٌ كُلِّيُّ الصلاح والقداسة والكمال أن يخلقَ خليقةً أو مخلوقًا مع احتمال وجود الخطيَّة؟ إذا كانت كلُّ الأشياء تعود إلى كينونة الله، أَلا يَتعيَّن علينا أن نَجِدَ الشَّرَّ في داخل الله نفسه لكي نجد تَفسيرًا لوجود الشَّرِّ في العالم؟ لذلك، فإن مسألة الشرِّ تتعلق بنَزاهة الله وقداسته. يَرتبط السؤال حوْل المُعاناة

بهذا السؤال على نحوٍ وثيق، لكنَّه ليس السؤال نفسَه. يأتي السؤال حوْل المُعاناة هكذا: كيف يُمكن أن يسمحَ إلهٌ صالح بكلِّ هذه المُعاناة التي نَجِدها في الحياة؟ إنَّهما سؤالان مُنفصلان. يُعدُّ الأوَّل سؤالًا فلسفيًّا بصورةٍ أكبر، ويُعدُّ الثاني سؤالًا عمليًّا يَتعلَّق بمُشكلة الألم والعذاب والمآسي الموجودة في العالم. لنعالج كُلًّا منهما على حِدة.

صَرَّح أحَدُ لاهوتيِّي القرن التاسع عشر بأنَّ مُشكلة الشَّرِّ هي نقطة ضعف الإيمان المسيحيّ. وزعم أنَّه لا يوجَدُ تفسير مُرْضٍ يُمكن تقديمه لوجود الشَّرِّ. وصرَّح كثير من المُتشكِّكين والمُلحدين أنَّه إذا لم يَكنْ في وُسعِ الله أن يَمنعَ دخول الشَّرِّ إلى الكَوْن، فهو إذًا ليس كلِّيَّ القُدرة. وإذا كان في وُسعه أن يُوقِفه لكنَّه اختارَ ألَّا يُوقِفه، فهو إذًا ليس صالحًا. فأيًّا كانت الطريقة التي

تَنظُر بها إلى مُشكلة الشَّرّ، بطريقةٍ ما ستكون طبيعة الله مَوضِعَ شكٍّ.

تاريخيًّا، كانت هناك مُحاولاتٌ عِدَّة للإجابة عن السؤال بخصوص مَصدر الشَّرِّ من منظورٍ مسيحيّ، ووَصلَتْ إلينا تلك المُحاولات بواسطة ما نُسمِّيه الثيوديسيا (theodicy). الثيوديسيا – من اللغة اليونانيَّة وهي تَعني «تبرير الله» – هي مُحاولة لتبرير مَوقف الله في ما يَتعلَّق بوجودِ الشَّرِّ في العالم. لكن في رأيي، لم يَستطِعْ أحَدٌ حتَّى الآن أن يُجيب بصورةٍ كافية عن السؤال المُتعلِّق بمُشكلة الشَّرّ.

إنَّ أوَّلَ أمرٍ على المؤمن أن يَفعله عندما يُواجَهُ بهذا السؤال هو أن يقول فورًا: «أنا لا أعرف الإجابة»، وأن يُقِرَّ بجِدِّيَّة السؤال. لا تُحاول المناورة، ولا تُحاوِلِ الاختباء. لا تُحاول أن تَتجنَّب السؤال، بل تَعامَل معه

وجهًا لوجه. من المُهمِّ أن يرى الناس أنَّنا نحن المؤمنين نُدرِك وجود مُشكلة خَطِرة هنا، وأنَّنا لسنا غافلين عنها. فلِنَنظُرْ إلى اثنتَين من الثيوديسيا، لكي نَرى كيف تَعامَل بعضُ الأشخاص مع هذه المُشكلة. أوَّلًا، لقد تَعامَل بعضُنا مع هذا السؤال بواسطةِ إنكارِ حقيقةِ الشَّرِّ تمامًا، وجادلوا بأن الشَّرَّ وهمٌ. في رأيي، هذا انسحابٌ، لأنَّه لا يُفكِّرُ بصورةٍ جادَّةٍ في الواقع الذي نَختبره كلَّ يوم.

أما النَّهج الثاني فقال إنَّ الشَّرَّ في الواقع مُتطلَّبٌ ضروريٌّ لتقدير الخَيْر، ولذلك فإن المُحصِّلة النهائية هي أن الشَّرَّ خَيْرٌ. لنُعبِّر عن هذه النَّهج بتعبيراتٍ مُحدَّدة: لكي يَختبِرَ الإنسانُ حقيقةَ الخَيْر بحُرِّيَّة، وَجَبَ عليه أن يَختبِرَ مُشكلةَ الشَّرّ. كان عليه أن يَختبِرَ حقيقةَ الشَّرِّ لكي يَتمكَّن من تقدير فدائه. بحسب هذا المُخطَّط، والذي جرى تقديمه مرَّاتٍ عدَّة في تاريخ الكنيسة، كان السقوط في الواقع قفزةً إلى الأمام. كان سقوطًا

إلـى أعلـى لا إلـى أسـفل. وهـذا يُخفِـق فـي التعامـل علـى نحـوٍ مُناسـبٍ وجـادٍّ مـع الحُكم السلبيِّ الـذي أصـدره الله بنفسـه علـى دخـول خطيَّـة الإنسـان إلـى العالـم.

هنـاك ثيوديسـيا أخـرى مهمَّـةٌ ومُبهِـرة، وهـي التـي قَدَّمهـا غوتفريـد لايبنتـس (Gottfried Leibniz) الـذي كان يَنتمـي إلـى المدرسـة العقلانيَّـة فـي الفلسـفة، والتـي انحـدرت مـن الفكـر الديكارتـيِّ فـي القـرن السـابع عشـر. تُعـدُّ الثيوديسـيا التـي قَدَّمهـا لايبنتـس ذكيَّـة، وقـد شـاهدْتُ المسـيحيِّين يسـتخدمونها لإقنـاع الآخريـن بـأنَّ لدينـا تفسيرًا لمَصـدر الخطيَّـة. فـي الواقـع، لقد أجريـتُ تجربـة فـي إحـدى محاضـرات الفلسـفة فـي الجامعـة. أخبـرتُ طُلَّابـي بأنَّنـي سـأعطيهم تفسـيرًا فلسـفيًّا لمُشـكلة الشَّـرّ، وقدَّمـتُ مَوقـف لايبنتـس بشـغفٍ وبلاغـةٍ قـدرَ اسـتطاعتي. وعندمـا أنهيـتُ مُحاضرتـي، سـألتُهم: «هـل هـذا أمـرٌ منطقـيٌّ؟» وقَبِـلَ كلُّ واحـد مـن الطـلاب فـي الفَصـل الحُجَّـةَ

التـي قدَّمتُهـا، وعلَّمنـي ذلـك أمـرًا: أدركـتُ أنَّـه بإمكانـي استخدام هذه الحُجَّـة والفوز في المناقشـات طَـوال الوقت. لكنَّنـي كنـتُ أعـرفُ أنَّهـا غيـر صحيحـة، وكنـتُ أعـرف أنَّ هنـاك مُغالطـةً فـي الحُجَّة. وبعد أن شَـرحتُ للطلبة لماذا كان عليهـم ألَّا يَقبلـوا تلـك الحُجَّـة، غيَّـروا رأيهـم. يُمكـن أن يكـونَ مَوقـفُ لايبنتـس مُقنعًـا جـدًّا، لكنَّنـي أُنبِّهُـك أنَّ النزاهـة المسـيحيَّة تَتطلَّـب ألَّا نسـتخدم مثـل هـذه المُغالطـات فـي التعامُـلِ مـع هـذا السـؤال.

بـدأ لايبنتـس الثيوديسـيا التـي وضعهـا بتقديـمِ تمييـزٍ ثلاثـيٍّ بخصـوص الشَّـرِّ. لقـد مَيَّـز بيـن مـا يُسـمِّيه الشَّـرَّ الأخلاقـيَّ، والشَّـرَّ المـادِّيَّ، والشَّـرَّ الميتافيزيقـيّ. يَتعلَّـق الشَّـرُّ فـي كلٍّ مـن هـذه المفاهيـم بمعنًـى مُشـترَكٍ: فـي كلٍّ منهـا، يُعـرَّف الشَّـرُّ بمفاهيـمَ سـلبيَّةٍ بأنَّـه نـوع مـن النَّقـص. يعـود ذلـك إلـى تعريـف القـرون الوسـطى للشَّـرِّ بوصفـه بريڤاتيـو (*privatio*) أو حِرمانًـا، أي نَقصًـا فـي الخَيْـر.

يُعـدُّ الشَّـرُّ الأخلاقـيُّ نَقصًـا فـي الخَيْـر الأخلاقـيّ. إنـه قصـور. يُعـدُّ الشَّـرُّ المـادِّيُّ قصورًا فـي الخَيْـر المادِّيّ، ويُعـدُّ الشَّـرُّ الميتافيزيقـيُّ قصـورًا فـي الخَيْـر الميتافيزيقـيّ. يَتعلَّـق الشَّـرُّ الأخلاقـيُّ بأفعـال الكائنـات الأخلاقيَّـة، أي الأنمـاط السـلوكيَّة الإراديَّـة لأشـخاص أخلاقيِّيـن. ويحسـبُ الشَّـرُّ المـادِّيُّ الأشـياءَ التـي نَصفهـا بأنَّهـا كارثـةٌ أو مأسـاةٌ مثـل: الـزلازل والأعاصيـر والحرائـق والريـاح والعواصـف والأوبئـة. يَتعلَّـق الشَّـرُّ الميتافيزيقـيُّ بعـدم الكمـال الأُنطولوجـيِّ، وتتعلَّـق الأُنطولوجيـا «بالكينونـة»، أي بجوهـر الأشـياء. يَرتبـط الأمرُ بكينونةِ الشـيء ووجوده وجوهـره. عـدم الكمـال الميتافيزيقـيِّ هـو أن يكـون الشـيء أقـلَّ مـن الكائـن الأزلـيِّ الموجـود بذاتـه، وأن يكـون أقـل مـن المُطلَـق. يُمكـن أن يكـونَ الشـيء غيـر الكامـل مخلوقًـا ومُعتمِـدًا، ومـا يَطـرأ عليـه تغييـر وتتابُـع وتدهور. فـي عبـارةٍ واحـدة، مـا هـو ناقـصٌ ميتافيزيقيًّـا هـو شـيءٌ محـدود.

إن حُجَّة لايبنتس الأساسيَّة هي أنَّ الشَّرَّ المادِّيَّ «يَنبُع» من الشَّرِّ الميتافيزيقيّ، والشَّرُّ الأخلاقيُّ «يَنبُع» من الشَّرِّ المادِّيّ. لذلك، يُعدُّ السببُ وراء وجودِ الشَّرِّ الأخلاقيِّ هو أنَّ العالم يَمتلئ بالكائنات الميتافيزيقيَّة الناقصة. أنا أرتكب خطايا لأنَّني ضعيف، وأنا ضعيفٌ لأنَّني محدود. والطريقة الوحيدة التي بها أعيش دون أن أُخطئ هي لو استطعتُ أن أتسامَى عن الضعف الميتافيزيقيِّ الداخليِّ الذي يرتَبط بالكائنات المحدودة. أن تكون إنسانًا معناه أن تُخطئ، لأنَّنا محدودون. وهناك حدود لمعرفتنا، وقوَّتنا الجسديَّة، وقدرتنا على التَّحمُّل. بالتعريف، لا نَتمتَّع بالقدرة المُطلقة، ولا نَتمتَّع بالحكمة المُطلقة، ولا نَتمتَّع بكل ما يَتَّصِف به الله. لذلك، بمعنًى ما، من المُحتَّم عليَّ لضعف بشريَّتي البسيط أن أرتكبَ الخطيَّة.

لكـنَّ السـؤالَ يظـلُّ قائمًـا: لمـاذا خلـق الله كائنـاتٍ محـدودةً وضعيفـةً مثلنـا؟ فَهِـمَ لايبنتـس حقيقـةَ أنَّ الله خلـقَ الكائنـات مـن الأسـاس علـى أنَّـه فعـلُ مَحبـة مـن ناحيتـه. لذلـك لا نسـتطيع أن نَنسِـب أيَّ خطـإٍ إلـى الله بسـبب رغبتـه فـي أن يَخلِـق. لكنْ إذا كان الله سـيُعطي هِبة الوجود لكائناتٍ أخـرى، فكيـف يَفعـل ذلـك بأفضـل طريقـة؟ لمـاذا لا يَخلِـق الإنسـان كامـلًا أخلاقيًّـا؟ هـذا هـو الحُكـم الـذي يُصـدره المُتشـكِّكون. إذا كان الله سـيَخلِق بشـرًا، فلمـاذا لا يَخلِقهـم صالحيـن بصـورةٍ كاملـة؟

يُجيـب لايبنتـس عـن هـذا السـؤال بـأنَّ الله لا يسـتطيع فعـل ذلـك. حتَّـى الله لا يسـتطيع أن يَخلِـقَ كائنًـا كامـل الصـلاح؛ لأنَّـه إذا خَلَقـه صالحًـا أخلاقيًّـا تمامًـا، فعليـه أن يَخلِقَـه صالحًـا جسـديًّا تمامًـا، وإذا خَلَقـه صالحًـا جسـديًّا تمامًـا، فعليـه أن يَخلِقـه صالحًـا ميتافيزيقيًّـا تمامًـا، وذلـك أمـرٌ مسـتحيل؛ لأنَّ ذلـك يعنـي أنَّـه كان ليَخلِـق إلهًـا آخـر.

ولـكان عليـه أن يَخلِـقَ إلهًـا آخـر غيـر محـدود، وأزلـيٍّ، وكائـن بذاتـه، وكامـلٍ فـي طبيعتـه. لكـنْ يسـتحيل علـى الله أن يَخلِق إلهًا آخر. لماذا؟ لأنَّ أيَّ كائنٍ سـيَخلِقه اللهُ سـيكون مُعتمـدًا فـي وجـوده علـى الله. لـن يكـون أزليًّـا، ولـن يكـونَ كائنًـا بذاتـه. سـيكون أقـلُّ أُنطولوجيًّـا مـن الخالـق الـذي أتـى بـه إلـى الوجـود فـي المقـام الأوَّل. سـتكون حقيقـةُ أنَّ لـه بدايـةً زمنيَّـةً هـي مـا تُفرِّقـه عـن الله. لذلـك لا يسـتطيع الله أن يَخلِـقَ إلهًـا آخـر، لكنَّـه يسـتطيع أن يَخلِـق عـددًا غيـر محـدود تقريبًـا مـن أنـواع الكائنـات المُختلفـة.

إن القضيَّـة ليسـت: هـل يَجِـبُ أن يَخلِـقَ اللهُ عالمًـا كامـلًا؟ لا يُمكننـا أن نُطالِـبَ اللهَ بـأنْ يَخلِـقَ عالمًـا كامـلًا. لكـنْ إذا كان الله كائنًـا أخلاقيًّـا؛ وإذا كان صالحًـا، يُمكننـا أن نُطالِـب بـأن يَخلِـق اللهُ أفضـل العوالـم المُمكِنـة. إنَّ العالـمَ الافتراضـيَّ الـذي يَطرحـه الفلاسـفةُ هـو موقـفٌ مسـتحيل. والسـؤالُ الـذي يَنبغـي أن يطرحه الفلاسـفة ليس:

لماذا هناك شَرّ؟ بل يَنبغي أن يقول الفيلسوف: «أليس من الرائع أنَّ الله لم يَخلِق العالم وفيه شَرٌّ أكثر ممَّا هو موجود بالفعل؟» لقد فَعلَ اللهُ أفضل ما في وُسعه. لقد خَلقَ أفضل العوالم المُمكِنة.

كان الخصم الرئيسيُّ للايبنتس هو ڤولتير (Voltaire). كتب ڤولتير مسرحيَّته كانديد (Candide) لكي يُهاجِم لايبنتس. تُمثِّل شخصية الدكتور پانغلوس (Pangloss) لايبنتس. يَتحدَّث الدكتور پانغلوس بشأن أفضل العوالم المُمكِنة. ضربَ الزلزال مدينة لشبونة، وماتَ الآلاف، وما زال پانغلوس يتحدَّث بشأن أفضل العوالم المُمكِنة. كان ذلك هو التعليقَ الساخرَ الذي قدَّمه ڤولتير على فَرضيَّة الثيوديسيا التي طَرحها لايبنتس.

هناك مُشكلتان في الثيوديسيا التي قدَّمها لايبنتس: مُشكلة عقلانيَّة ومُشكلة كتابيَّة. تَتعلَّق المُشكلة العقلانيَّة

بأنَّـه ارتكـبَ أحـد أبسـط الأخطـاء فـي المنطـق، ولكنَّـه خطـأٌ منطقـيٌّ مـن النـوع الـذي يَصعـب جـدًّا تمييـزه. لقـد ارتكـب مُغالطـة الالتبـاس. فـي كلِّ واحـدٍ مـن تلـك التمييـزات، يَتغيَّـر معنـى الشَّـرّ. يُعبِّـر الشَّـرُّ الأخلاقـيُّ عن الأمور التي تَستحقُّ إجراءات عقابيَّة. إنَّ الشَّرَّ الأخلاقيَّ بالتعريـف هـو نـوعُ الشَّـرِّ الذي يأتي مـن كائنات لهـا إرادة. مـن ناحيـة أخرى، يَعـذُر الشَّـرُّ الميتافيزيقيُّ الإنسـان لِكَوْنه شـرِّيرًا أخلاقيًّـا، إذ يُقـدِّم عُـذرًا لله وللإنسـان. لا يُبـرِّر الله فقـط مـن جهـةِ وجـودِ الشَّـرّ، بـل يُبـرِّر الإنسـان أيضًـا مـن جهـةِ وجـود الشَّـرّ. لا يُمكـن فـي الواقع تحميل الإنسـان المسـؤوليَّة لأنَّ مـن الضـروريِّ عليـه أن يُخطـئ بسـبب النَّقص الميتافيزيقـيّ. وإذا كان مـن الضروريِّ على البشـر أن يُخطئـوا، فكيـف يُمكننـا أن نُحاكَم علـى مـا يجـب علينـا فعلـه بالطبيعة؟

لدينا مُشكلاتٌ أخرى من الناحية الكتابيَّة. أوَّلًا، إذا كان هذا الطَّرح سليمًا، فسيكون من المُستحيل أن نَتحرَّرَ من الشَّرِّ الأخلاقيِّ في السماء، إلَّا إذا قام الله بما هو أكثر من تمجيدنا؛ إذ عليه أن يجعلنا آلهةً ليُحرِّرنا من الشَّرّ. ثانيًا، يعني ذلك أنَّ آدمَ لم يَسقُط. خُلِقَ آدم شرِّيرًا، على الأقلِّ شرِّيرًا ميتافيزيقيًّا وجسديًّا، وهو ما يَعذُره أخلاقيًّا. لذلك؛ ومن جهاتٍ عدَّة، لا تستطيع حُجَّة لايبنتس أن تَعمل بوصفها ثيوديسيا مسيحيَّة لمُشكلة الشَّرِّ.

كانت المُحاولات الأخرى التي قُدِّمتْ للإجابة عن سؤال الشَّر بصورةٍ ما ساذجةً. تُعدُّ إحدى الإجابات المُعتادة التي يقدمها المسيحيون بخصوص مَصدر الشَّرِّ هي أنَّه يَنبُع من حُرِّيَّة الإنسان، ولكي يكونَ الإنسانُ حُرًّا، كان يَجِب أن تكون له القُدرة على فعل الصواب أو الخطأ. ولذلك، أعطى الله الإنسانَ حقَّ الاختيار.

أعطاه حُرِّيَّةً، وأن تُعطي المخلوقَ حُرِّيَّةً لاختيار الشَّرِّ لا يَعني أنَّك تَجعله شرِّيرًا، أو أنَّك مسؤولٌ عن ذلك الشَّرّ. وبذلك يُمكننا أن نُحدِّدَ مَصدرَ الشرِّ بأنَّه يَنبُع من اختيارات الإنسان الخاطئة في حُرِّيَّته.

بحسب الكتاب المُقدَّس، يُمكننا بالتأكيد أن نَعترِفَ بأنَّ الإنسانَ حُرٌّ وهو مسؤولٌ وسيُحاسَب عن خطيَّته. لكنَّ السؤالَ الحقيقيَّ عن مَصدر الشَّرِّ لم تَتم الإجابة عنه بمُجرَّد الإشارة إلى الحُرِّيَّة الإنسانيَّة. لِمَ لا؟ ما زال عليك أن تسأل: لماذا اختار ذلك الإنسان أن يَفعَلَ الشَّرَّ؟ وذلك يأخذنا رجوعًا إلى التفكير في الحقائق التي تَتعلَّق بسقوط آدم وحوَّاء. ما الذي دَفعَ آدم وحوَّاء إلى اختيار الشَّرِّ بدلَ الخَيْر؟ قُدِّمتْ إجاباتٌ من كلِّ نوع عن هذا السؤال. يقول بعض الأشخاص: «دَفعَهُم الشرِّير إلى فعل ذلك. لقد أضلَّهما المُضِلّ». لكنَّ السؤالَ الذي

يَتبادر إلى الذهن مُباشرةً هو: إذا كانا قد ارتكبا الخطأ بسبب الخداع، فهل كان ذلك خطيَّةً فعلًا؟ ألم يُخطئا عن جَهل له عذره، إذا كانا في الحقيقة لا يَعرفان؟

إنَّ المُشكلة الأخرى المُتعلِّقة بتلك الحُجَّة هي أنَّ القصَّة الكتابيَّة تُخبرنا بأنَّ آدم وحوَّاء كانا يعرفان. لقد أخبرهما اللهُ صراحةً بما كان مسموحًا لهما فعله وبما لم يَكُن مسموحًا. لذلك لا نستطيع أن نَفهم دخول الخطيَّة إلى العالم على أنَّه حدثَ نتيجةً للخداع. ماذا عن الإجبار؟ افترضَ أنَّ الشيطانَ أجبرَهم على الخطيَّة! مرَّةً أخرى، إذا كانت الخطيَّةُ ناتجةً عن الإجبار، فلن يُحمِّلهم الله المسؤوليَّة. لكنَّ الله حمَّلَهم المسؤوليَّة بالفعل. ولا تُلمِّح القصَّة إلى أنَّهما أُجبِرا على الخطيَّة. في كلِّ مرَّةٍ نقرأ فيها القصَّة، نرى آدم وحوَّاء يُخطئان باختيارهما، بفِعلٍ حرٍّ اختياريٍّ.

إليكَ السؤال الحقيقي: في أيَّةِ حالةٍ كان آدم وحوَّاء قبل أن يُخطئا، من الناحية الأخلاقيَّة؟ إلامَ كانت تَميل إرادتهما؟ هل كانت إرادتهما تميل فقط نحو الخَيْر، أم فقط نحو الشَّر، أم كانت مُحايدة؟

عندما نَختار، فإنَّنا نَختار دائمًا بحسب أقوى مَيْل، أو أقوى رغبةٍ لدينا. وهذا هو جوهر الاختيار: الذهن هو الذي يختار. أنا أفعل شيئًا ما لأنَّني أرغبُ في القيام به. هذا هو المقصود باختيار شيء ما. إنَّه فِعلٌ ينبع من رغبةٍ ما.

إنْ كان مَيْل قلب آدم وحوَّاء شرِّيرًا قبل أن يختارا الشَّرَّ، فما المُشكلة في ذلك؟ إنَّ ذلك كان ليعني أنَّهما كانا ساقطيْن قبل أن يَسقُطا، وأنَّهما أخطأا لأنَّهما كانا خاطِئَيْن. وكان ذلك ليعني أنَّ الخطيَّة لم تَكُن نتيجةً لسقوط آدم، بل نتيجةً للخَلْق. وكان ذلك ليعني أنَّ الله خلقَ إنسانًا فيه مَيْل إلى الشَّرِّ، وطبقًا للمعايير الكتابيَّة،

حتَّـى المَيْـل إلـى الشَّـرِّ يعـدُّه الله خطيَّـة. لذلـك، فـإذا قُلنـا إنَّهمـا ارتكبـا الخطـأ لأنَّـه كان لديهمـا مَيْـلٌ شـرِّيرٌ، فهمـا إذًا تَصَرَّفـا وَفقًـا لطبيعتهمـا الشـرِّيرة. سـيَجعل ذلـك اللهَ مصـدرًا للشَّـرّ، وليـس هـذا الفكـرُ كتابيًّـا. لكـنْ، لنفتـرضْ أنَّ مَيْلهمـا كان نحـو الخَيْـر فقـط؛ فكيـف كان فـي وُسـعهما أن يَختـارا الشَّـرّ؟ لـن يُفسِّـر ذلـك خطيَّتهمـا. مـاذا لـو كان مَيْلُهمـا مُحايـدًا؟ مـاذا لـو لـم يَكُـنْ مَيْلهمـا نحـو الخَيْـر أو الشَّـرّ؟ فلـن يكـون لديهمـا سـببٌ للاختيـار الـذي قامـا بـه. سـيَعني ذلـك أنَّهمـا قامـا بـه فقـط دون توجُّـهٍ أخلاقـيٍّ مـن أيِّ نـوع. لـن يكـونَ ذلـك حتَّـى اختيـارًا أخلاقيًّـا. لكـنَّ هنـاك مُشـكلةً فلسـفيَّةً أكبـر. إذا لـم يَكُـن لـدى البشـر أيُّ توجُّـه لاختيـارٍ مـا، فهـل يُمكنهم الاختيار؟ كلا، سـتترُك الحالـة المُحايـدة لـلإرادة الشـخصَ مشـلولًا. لـن يمكنـه أن يختـار قـط. لـذا، فـإن هـذا لا يسـتطيع تفسـير الأمـر. فما الذي يَتبقَّى للمسيحيِّين ليُقدِّموا تفسيرًا للسقوط؟

عنـد هـذه النُّقطـة، علينـا أن نَسـأل: أهـي خطيَّـةٌ أن يُغرَى الإنسـانُ للقيـام بأمـرٍ شـرِّير؟ مـاذا لـو أُغريـتُ لفعل خطيَّـةٍ مـا، لكنَّني اخترتُ ألَّا أتجـاوبَ مـع الإغراء؟ هل أكون بذلك قد ارتكبْتُ خطيَّـة؟ أرى أنَّ ذلك يَتوقَّفُ على المقصود بالإغراء.

فـي جنَّـةِ عَـدْن، أتـى أبـو الأكاذيـب وقـال إنَّـه لا بـأس مـن الأكل مـن الشـجرة. فلنَنظُـرْ إلـى فِعـل الأكل. أن تـرى شـيئًا صالحًـا، وأن تُفكِّـر وترغـب فـي الأكل مـن شـيءٍ جيِّـدٍ ثـمَّ تتذوَّقـه، ليـس فعـلًا خاطئًـا. جـاع يسـوع فـي البرِّيَّـة، ولـم تَكُـن هنـاك أيَّـة مُشـكلةٍ فـي أن يجـوعَ يسـوعُ ويرغبُ فـي الطعـام. لـم تَكُن هنـاك خطيَّةٌ فـي ذلك. سـتكون هنـاك خطيَّـةٌ فقـط لـو تجـاوَبَ مـع تلـك الرغبـة. لـو أرادَ أن يَعصـى الله، لـكانَ ذلـك خطيَّة. إذا جلسـتُ راغبًا فـي فعـل أمـرٍ شـرِّيرٍ بطبيعتـه، فإنَّنـي بذلـك أكـونُ بالفعـل قـد أخطـأتُ داخليًّـا. وهنـا يَتعقَّـد الأمـر بشـدَّة. يُمكننـا

أن نـرى كيـف فكَّـرَ آدم وحـوَّاء في أنَّ الشـجرةَ جيِّـدةٌ للأكل وشـهيَّة، وأنَّهمـا رغبـا فـي الأكل منهـا، لكـنَّ رغبتهمـا في الأكلِ تَعارضتْ مع رغبتهما في إرضاء الله.

يَجـب علينـا أيضًـا أن نُفكـر فـي معنـى أن يكونَ الإنسـان حُـرًّا. إنَّ المفهـومَ الإنسـانيَّ عـن الحرِّيَّـة هـو أنَّهـا القـدرةُ علـى الاختيـار دون توجُّـهٍ سـابق، أو مَيْـل، أو أيِّ شـيءٍ قـد يَجعلنـا نَميـل نحـو اتِّجـاهٍ مُعيَّن، لكـي تكـون اختياراتنـا غيـر مُتوقَّعـة وعفويَّـة تمامًـا. إذا قَبِلنـا ذلـك المفهـوم عـن الحرِّيَّـة، فإننـا نقبـل أيضًـا المبـدأ الفلسـفيَّ القائـلَ إنَّ شيئًا يُمكن أن يأتيَ من لا شيء.

القضيَّـة هنـا هـي قضيَّـة الحتميَّـة فـي مُقابـل الـلا حتمية. لا تُعـد الحُريَّـة مُطابِقـة لعـدم الحتميَّـة. إن الـلا حتمية مفهوم فـارغ. لا يوجـد شـيءٌ اسـمُه لا حتميـة. إنَّ كلَّ شـيء مُقـرَّرٌ أو مُحـدَّد. السـؤال هـو: مـا نُقطـة التحديـد؟ إنَّ جوهـر

الحُرِّيَّة هو تقرير المَصير، بدلَ أن يَتحدَّد ذلك المصير بواسطة شيءٍ خارجيٍّ أو شخصٍ آخر غيري. تَعني الحُرِّيَّة أن أفعلَ ما أرغبُ فيه. ألا أكونُ حُرًّا عندما أفعل ما أرغبُ فيه؟ إنَّ السبب في أنني أفعل شيئًا ما هو أنني أرغبُ في فِعله. هذا هو السبب: أنه لديَّ مَيْل إلى فِعله. يُمكنني أن أقول: «يوافق عقلي عليه، أعتقد أنَّه أمرٌ جيِّد. أرغبُ في فِعله». ولذلك أفعله. هل هذا فِعل حُرٌّ، أم تَحدَّد بواسطة رغبتي؟ إذا تَحدَّد بواسطتي، هل يُمكن أن نقولَ إنَّه لم يَكُن فِعلًا حُرًّا؟ إنَّ جوهر الحرِّيَّة هو أنني أقرر مصيري، لكنَّه نوعٌ من الحتميَّة؛ إن الفِعل يَتحدَّد بواسطة الشخص الذي يقوم بالاختيار.

لدينا هنا مُشكلة أخرى. عندما نَتحدَّث بشأن الخلق من العَدَم (ex nihilo)، فإنَّ سوء فَهم ذلك المفهوم يَجري في عروق ثقافة اليوم. عندما تَحدَّث القدِّيس

أغسطينوس بشأن الخلق من العَدَم، لم يَقُلْ إنَّ العالم أتى من العَدَم بصورةٍ مُطلقة. كان يقول إنَّه لم تَكُن هناك موادُّ أوَّليَّةٌ استخدمها الله ليُشَكِّلَ منها الكوْن. بالتأكيد أتى العالم من شيء ما؛ أتي من عِند الله، من عَقل الله أو من مَقاصده. ولماذا أتى العالم إلى الوجود؟ لأنَّ الله قَصدَ أن ذلك يَنبغي أن يحدُث لأنَّه أراد أن يُحضِر العالم إلى الوجود. هناك سببٌ لمجيء الخليقة إلى الوجود. لم تَحدُث فحسب، ولم يَخلق الله العالم اعتباطيًّا أو عشوائيًّا أو عَفويًّا. لقد أرادَ الله أن يَخلِق، وكان ذلك قرارًا عقليًّا وذكيًّا. لقد رَغِب الله في أن يَخلِق قبل أن يَخلِق. نعم، حتَّى الله يَرغبَ في فِعل شيء ما قبل أن يَفعله. هذا هو جوهر الحُرِّيَّة، وهذا هو الله. إنَّ الله حُرٌّ في أن يَفعل ما يرغب فيه.

يُعدُّ تعريف الحرِّيَّة الذي يَنبغي لنا استخدامه هو أنَّها القُدرة على اختيار ما تُريد. إنَّ القُدرة على الاختيار دون وجود أيَّة رغبة هو تَولُّدٌ تلقائيٌّ للاختيار، وهذا النوع من الخَلْق حتَّى الله لا يستطيع القيام به. لا يوجد حتَّى لدى الله القُدرة على خَلْق ذاته أو التَّولُّد التلقائيّ. تُوجد لدى الله القُدرة على الإتيان بشيءٍ من لا شيء مادِّيًّا. لكنَّ عبارة «من العَدَم» لا تَعني أنَّه لم يكُنْ لديه توجُّهٌ مُسبَق لأن يَخلِق.

لا يُمكننا أن نقولَ ببساطةٍ إنَّ شخصًا ما تَصرَّف عن اختيار حرٍّ. يَجب أن نسألَ لماذا اختار شخصٌ ما بحُرِّيَّة أن يَفعل ذلك؟ ما الذي دَفعه إلى اختيار ذلك بحرِّيَّة؟ لا يُوجد تفسيرٌ منطقيٌّ مُرْضٍ لخطيَّة آدم. عندما نُفكِّر في الصالح والرديء والمُحايد، علينا أن نَختار من بين هذه الأمور الثلاثة، ويَجب أن يكون اختيارًا منطقيًّا. يُمكن أن يكون أحَدُ هذه الأمور مُستحيلًا

منطقيًّا. ويَهدِم اختيارٌ آخَرُ نزاهةَ الله. ويُحيِّر آخر أعظم العقول في التاريخ. لكنَّ الجوابَ الذي اختارَتْه الكنيسة على الدوام هو أنَّ مَيْلَ الإنسان كان نحو الخَيْر أو الصلاح فقط، لكنَّه اختار الشَّرّ.

إنَّه سِرٌّ أو أمرٌ عجيب. لا أعرِف كيف أَمكنَ أن يحدُث، لكنَّه حَدثَ. دعا كارل بارت (Karl Barth) ذلك «الإمكانيَّة المُستحيلة». لا يُعجبني أن أُسمِّيه هكذا؛ لأنَّه بما أنه حدث، فهو إذًا كان ممكنًا. لكنَّنا لا نَعرف كيف كان مُمكِنًا. إن خطيَّة الإنسان سر.

لكنَّ حقيقةَ كَوْنه سِرًّا اليوم، لا يَعني أنَّ إجابةَ سؤالنا لن تُكتشَف غدًا. مثلما قال لي مُعلِّمي جون جيرسْتنَر (John Gerstner) ذات مَرَّة، إنَّه يُمكن أن يأتي لاهوتيٌّ بارعٌ ويكتشف تلك الإجابة. أشار إلى ذلك الأمر مرَّاتٍ عدَّة في أثناء دراستي عندما واجهني سؤالٌ صعبٌ

لـم أسـتطع حَلَّـه حينهـا، لكـنْ لاحقًـا توصَّلـتُ إلـى حـلٍّ المُشـكلة.

هـل يَعنـي كلُّ ذلـك أنَّـه عندمـا نُقابـل نُقَّـادًا للإيمـان المسـيحيِّ يُصارعـون مـع مُشـكلة الشَّـرّ، يكـون الاختيـار الوحيـد الـذي لدينـا هـو الاستسـلام؟ هـل علينـا التَّخلِّـي عـن الإيمـان المسـيحيّ؟ لا، لأنَّـه عندمـا نَتحـدَّث بشـأن مُعضلـة الشَّـرّ، علينـا أن نَتحـدَّث أيضًـا بشـأن مُعضلـة الخَيْـر.

نَعلَـم أنَّنـا نُواجِـه حقيقـةَ الشَّـرّ. فمـا المُتطلَّبـات المُسـبَقة لمُشـكلة الشَّـرِّ لكـي توجَـد مـن الأسـاس؟ مـا الـذي يَجـب أن يوجَـد لكـي يكـون الشَّـرُّ مُشـكلةً؟ إنَّـه الخَيْـر. لا تُوجـد مُشـكلةٌ حقيقيَّـةٌ فـي الشَّـر إنْ لم يكُـن هناك أوَّلًا خيـرٌ مطلَقٌ. إنَّ وجـودَ الشَّـرِّ هـو إحـدى الشـهادات الدامغـة لوجـود الله. إنَّ السُّـخرية الموجـودة فـي هـذه الحُجَّـة هـي مـا يأتـي: لا يُمكـن أن تُوجَـد مُعضلـة الشَّـرِّ إنْ لـم تُوجَـد مُعضلـة

الخَيْر. إنَّنا دائمًا ما نُعرِّف الشَّرَّ بأوصاف سلبيَّةٍ وتابعة ومُشتقَّة. نَتذكَّر أنَّ التمييز الذي جرى التعبير عنه في العصور الوسطى هو أنَّ الشَّرَّ كان پريڤاتيو (privatio) أو نِجاتيو (negatio) – أي نَقصًا، أو نَقيضًا للخير. إنَّه عَوَز أو نَقص أو عَجز. يَعتمد الشَّرُّ على الخَيْر على أساسِ أنَّ الخَيْرَ هو المعيارُ المُستخدَم لتعريف الشَّرّ. كيف يَتعامل الكتاب المُقدَّس مع مُشكلة الشَّرّ؟ كيف يَصِف الكتاب المُقدَّس الشَّرّ؟ إنه يَصِفه بصورةٍ سلبيَّة. يَصفه بأنَّه عدم الصلاح، أو الإثم، أو عدم الطاعة، أو عدم الطهارة، أو ضد المسيح، وهكذا. يُمكن أن تُعرَّف النجاسة أو عدم الطهارة فقط مُقارنةً بالطهارة. يُمكن الحُكم على العصيان أو عدم الطاعة فقط مُقارنةً بالطاعة. يَحتاج المفهومُ السلبيُّ إلى المفهوم الإيجابيِّ بصفته النُّقطة المرجعيَّة لكي يوجَد من الأساس.

فقط عندما نَفترض وجود الخَيْر المُطلق يُمكن أن يصبحَ الشَّرُّ مُعضلة. وهنا يُمكن أن يقولَ أحَد الفلاسفة إنَّنا نَفترض وجود الخَيْر، لكنْ إذا كان هناك خَيْر، فالخَيْر ليس خَيْرًا فعلًا بسبب وجود مُشكلة الشَّرّ. سيقول الفيلسوف إنَّ علينا أن نَستبعِد أيَّ مفهوم للخَيْر المُطلق، ونَقبل المفهوم القائل إنَّه لا يوجد شيءٌ اسمه خَيْر أو شرّ.

إن هذا جوابٌ خَطِر، وهو الحُجَّة الأساسيَّة للعَدميَّة. لكنَّ أغلب الناس الذي يُجادلون في مواجهةِ وجودِ الله باستخدام مُشكلةِ الشَّرِّ بوصفها نُقطةً مَرجعيَّةً يَفترضون حقيقةَ الخَيْر. عندما أتحدَّث إلى الناس، أُقِرُّ بأنَّ لديَّ مُشكلة مع مُعضلة الشَّرّ. لكنَّني أخبرهم بأنَّ مَشكلتي هي بنصف حَجْم مُشكلتهم. إذا كنت تَعتقد أنَّ الشرَّ موجود، فلَديك إذًا مُشكلة تَتعلَّق بتفسير الكيفيَّة التي

بهـا يُمكـن أن يوجَـد الشَّـرُّ بمعـزلٍ عـن الخَيْـر. والسـبيل الوحيـد إلـى تعليـل وجـود الخيـر المطلـق هـو الله. لذلـك، فـإن حُجَّتـك تقـودك إلـى الله أو إلـى إنـكارِ حقيقـةِ الشَّـرّ.

لكـنْ حتَّــى بعـد أنِ عرضنــا لمُشـكلةَ الشَّـرّ، مــا زلنــا نحتــاج إلـى مُناقشـةٍ إحـدى الحُجـج العاطفيَّـة ضـدَّ الإيمـان المسـيحي: مُشـكلة الألـم. وهـي مـا سـنبحثه فـي الفصـول المُقبِلـة.